التأثير المتبادل بين الفن والعقيدة عبر العصور

■ أ.فدوى خليل سالم*

ملخص البحث:

تعد علاقة الفن بالعقيدة علاقة متغيرة من عقيدة إلى أخرى حيث تأثرت بعض الديانات بالفن واستخدمته في طقوسها وعباداتها مثل الديانات اليهودية والمسيحية والحضارات القديمة ، وأثرت بعض العقائد والديانات الأخرى في الفن وأعطته الطابع الخاص بها دون أن تدخله في طقوسها الدينية مثل الديانة الإسلامية فقد أثرت على الفنون الإسلامية وأعطته الطابع الإسلامي من حيث منعة من تصوير الأرواح ولم تتأثر به في العبادات والطقوس الدينية .

والعلاقة بين الفن والعقيدة من أهم المشكلات التي تطرح في العصور وكذلك الصراع الدائم بين رجال الدين والفنانين.

ويهدف البحث إلى الحديث عن العلاقة بين الفن والعقيدة وسرد الحضارات والفنون وعلاقتها بالعقيدة.

ومن أهم النتائج أن العلاقة بين الفن والعقيدة علاقة ديناميكية تشكل معطياتها دائما وفقا للظروف الحضارية التي يعيش الشعوب في إطارها وأن لكل من الديانات والعقائد تأثير وتأثر بالفنون.

مقـدمة :

تعد العلاقة بين الفن والعقيدة من أهم المشكلات التي تُطرح دائماً في هذه العصور وفي كل العصور والصراع بين الفنانين ورجال الدين لا يهدأ إلا ليبدأ من جديد .

حيث استمدت معظم الأديان قوتها بالفن وأخذ الفن مواضيعه من تلك الأديان حيث تشكل معطياتها على حسب قوة الاعتقاد وضعفه في النفس البشرية ، ولهذه العلة استخدمت بعض الأديان الفن كأداة انحرفت بها عن السلوك العقائدي .

وللفن مدلول واسع يحاول الباحث استجلاء بعض معانيه من خلال هذه الدراسة ويدور

* عضو هيئة التدريس بكلية الفنون والعمارة - جامعة عمر المختار - درنة

البحث حول طبيعة تلازم الفن والعقيدة والتأثير المتبادل بينهما ، ويقوم البحث أيضا على دراسة كل من الفن والعقيدة وعلاقتهما ببعض عبر العصور بشكل ملخص ابتداءً من فنون الإنسان البدائي مروراً بفنون الحضارات التي سيطرة بها الأديان والعقائد على الفنون[1].

مشكلة البحث:

- هل العلاقة بين الفن والعقيدة من أهم المشكلات التي تطرح بين العصور؟
- هل هناك صراع دائم بين رجال الدين والفنانين؟

اهمية البحث :

- توضح اهمية العلاقة الوطيدة بين الفن والعقيدة.
- دراسة مدى اهمية تأثير الفن والعقيدة على مدى العصور.

أهداف البحث:

- التعرف على العلاقة بين الفن والعقيدة.
- التعرف على الحضارات والفنون وعلاقتها بالعقيدة .
- الكشف عن علاقة الفن بالعقيدة .
- القاء الضوء عن تأثير بعض الديانات بالفن واستخدامها له.

الإطار النظري للدراسة

التأثير المتبادل بين الفن والعقيدة

وللحديث عن العلاقة بين الفن والعقيدة ينبغي أولا التطرق إلى كل منهما على حدة من حيث المفهوم العام.

أولاً : مفهوم الفن :

الفن في التجربة البشرية . نمط خاص من التعبير عن الحقائق الحياه ،ويتميز بنوعين مباشر وغير مباشر والفارق بينهما الأول يعتمد على نقل الحقائق بصورة واقعية وبينما الثاني يعتمد على عنصر (التخيل) اساسا لها .[2]

وتعني كلمة (فن) مجموعة المهارات البشرية على اختلاف أساليب التعبير بها ومهمة الفنان تكون في عملية تحويل المحسوس(الخام) إلى محسوس(أستاطيقي) (Aestheties) وهو علم الجمال الذي يقوم على دراسة الإحساس والإدراك عن طريق المشاعر، وتندرج تحته كل الأحكام الفلسفية المعنية بالفنون.[3]

مع أن التجربة الإبداعية لا تقتصر على الإبداع فقط ، وإنما تشمل التذوق والمشاركة الفنية لأن الفن عبارة عن مشاركة بين المتذوق والفنان من خلال وسائل فنية ، والفنان شخص مفكر من خلال وسيط فني معين .[4]

ثانياً: مفهوم العقيدة :

العقيدة في اللغة : من العَقْد : وهو الرَّبطُ ، والإبرامُ ، والإحكامُ ، والتَّوثُّقُ ، والشَّدُّ بقوة، والتماسُك ، والمُراصَّةُ ، والإثباتُ ؛ ومنه اليقين والجزم .

والعقد نقيض الحل ، ويقال : عقده يعقده عقداً ، ومنه عقدة اليمين والنكاح ، قال الله تبارك وتعالى): ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمانِكُمْ ولَكِنْ يُؤَاخذُكُمْ بما عَقَّدْتُّمُ الأَيْمَانَ ﴾. المائدة/ 89)

والعقيدة : الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده . والعقيدة في الدين : ما يُقْصَدُ به الاعتقاد دون العمل ؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل ، والجمع : عقائد .

وخلاصته : ما عقد الإنسانُ عليه قلبه جازماً به ؛ فهو عقيدة ، سواءٌ ؛ كان حقاً ، أو باطلاً .

وفي الاصطلاح : هي الأمور التي يجب أن يُصَدّقَ بها القلب ، وتطمئن إليها النفس ؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب ، ولا يخالطها شك . وسميت عقيدة ؛ لأن الإنسان يعقد عليه قلبه [5].

العلاقة بين الفن والعقيدة :

العلاقة بين الفن والدين علاقة تظهر في أغلب تجلياتها على شكل صراع حاد، ويبدو الفن في التعاليم الدينية أحد المحرمات التي ينبغي الابتعاد عنها، وهذا التعارض ناتج عن اختلاف النظرة لكل منهما، فالفن في عرف المتدينين يجسد النظام الإنساني للقيم والمعايير، مما يجعله غير ذي قيمة، أما الدين فإنه ظاهرة إلهية مقدسة محكمة ولا يمكن أن تهبط إلى مستوى المعايير البشرية العادية، ومن هنا كانت العلاقة بين الفن والدين وستبقى موضوعًا لصراع أيدولوجي حاد، ومن الملاحظ أن ممثلي الاتجاهات الفلسفية المثالية على اختلاف تياراتهم يضفون حالة خاصة على الدور التاريخي والثقافي للدين ملفتين أحيانًا إلى أن الدين والفن مرتبطان ببعضهما ارتباطًا عضويًا بوصفهما ظاهرتين تحاولان تقديم تفسير موحد للعالم وللتطور الروحي والجماعي ولكنهم سرعان ما يتراجعون عن مقولاتهم تلك حين يقررون أنه لا وجود لفن عظيم أو مراحل فنية مهمة دون أن تكون ملتحمة بديانات كبيرة، وهم بذلك يجعلون الفن تابعًا للدين وليس

صاحب شخصية مستقلة.والجدير بالذكر أن العلاقة بين الفن والعقيدة أو الدين مرت بمراحل مختلفة عبر التاريخ وقد حدد طبيعة هذه العلاقة الوعي الجمالي ، الذي هو بالضرورة وثيق الصلة بالوعي الاجتماعي وعلاقات الإنتاج وكل ما يدور في المجتمع.[6] وعند الحديث عن العقيدة في الفن يجب أولاً ذكر فنون الإنسان البدائي لما تحمله من معاني فكرية ودينيه صريحة وصادقة ومعبرة عن الواقع .

الحضارات والفنون المختلفة وعلاقتها بالعقيدة (التأثير والتأثر) :

كما لفنون الإنسان البدائي من علاقة قوية بالعقائد والدين فإن لفنون الحضارات التي مرت بها البشرية علاقة بالعقائد كل حسب فترته الزمنية وظروف معيشته ، وسيتطرق البحث لدراسة كل من **الفنون الإغريقية والفنون البيزنطية والفنون الإسلامية** كعينة لتأثير العقيدة أو الدين بالفنون والعكس وذلك من خلال الدراسة الملخصة لهذه الحقب الزمنية وتوضيح مدى تأثرها بالعقيدة وتأثير العقيدة بها في تلك الفترة .

1 . **فنون الإنسان البدائي والعقيدة :**

بدأت قصة الفنون منذ آلاف السنين ، حينما رسم الإنسان قبل أن يعرف الكتاب ، وقبل أن يتمكن من بناء منزل أو نسيج ملبس ، فصور على جدران الكهوف وأسقفها صوراً غايةً في الإبداع والدقة وقوة التعبير.[7]

تشهد على ذلك كل الآثار الباقية عبر آلاف السنين ، حيث نبعت لدى الإنسان من خلال تحقيق احتياجاته المادية في ظروف الغموض والخوف التي كانت تحيط بحياته في بدايتها ، حاجة معنوية وجدانية ، نشأة من شعور أن ذاته ضائعة وسط هذا الكون الشاسع العريض بكل ما فيه من جمال ووحشية وغموض .[8]

تحدث كثير من الكتاب والفنانين عن الرسوم الصخرية وتناولها كثير من العلماء بالتحليل الدقيق كما قضى كثير من الباحثين سنين طويلة مستقلين على ظهورهم، في كهوف مظلمة وجدران عالية ينقلون تلك الرسوم على أوراق ولوحات أو يلتقطون لها الصور . هذا كله ولعل أهم هذه الأسباب التي دعت إلى الاهتمام بهذه الرسوم ،هي محاولة معرفة الأسباب التي دفعت الإنسان القديم لعمل مثل تلك الرسوم ، خاصة أنها عُثر عليها في أماكن صعبة وبعيدة داخل كهوف مظلمة يصعب الدخول إليها ، حيث كان يحولها إلى قاعة عرض أو متحف لأعماله الفنية المختلفة في المواضيع والخامات والأحجام .

ومن الجدير بالذكر والاهتمام هو أن هذه الأعمال ظلت محفوظة دون أن يطرأ عليها أي تغير بواسطة عوامل التعرية والرياح والأمطار وغيرها .

وبعد هذه المعطيات فإن الآراء والاقتراحات التي طُرحت حول مغزى رسم الإنسان البدائي أو الغرض منها كثيرة ومتنوعة ولكن تلتقي أغلبها في تفسير متقارب ، حيث يقول البعض إنه لدافع سحري والبعض يقول لتزيين الكهف وملء الفراغ وغيرها من الآراء « فقد ابتدع الإنسان البدائي طريقة خاصة تزيل عنه جزء من عناء ومشقة التصارع مع تلك الظواهر الغامضة ، تلك هي طريقة الإيهام بالتغلب عليه مؤقتاً ، فإذا فشل في محاولات صيد الحيوان فإنه يقوم بتخطيط صورة متشابهة في وضع السيطرة عليه وكان ذلك العمل يشعره بإمكانية تحقيق ذلك في الواقع وهكذا بزغت أول أعمال الفن.

ويؤكد ذلك أيضاً عياد موسى العوامي بأن هذه الرسوم لها صلة وثيقة بالشعائر والطقوس الدينية والسحرية ولعل رسم الحيوانات المرغوب صيدها كان يمنح الصياد قوة تمكنه من صيد الحيوان الذي رسمه ، أو لعل الصياد عند عودته خائب الأمل حاول أن يرسم الحيوان الذي فشل في صيده كطريقه للترويح عن النفس.[9]

الدكتور/ عياد أبو بكر هاشم له نفس الآراء حيث يقول : «ربما لا تخرج تعبيرات الإنسان القديم في هذه الآثار الفنية عن كونها شعائر دينية أو طقوس سحرية حتى يتمكن الإنسان – الرسام – من اصطياد أو ترويض الحيوان المفترس المتوحش ولو كان ذلك بالرسم لا بالواقع الفعلي ».[10]

إذاً فهي لوحات رسمت في حضارات الخوف من الطبيعة العارية وما تفعله من كوارث ،وعدم الاطمئنان من جيرانهم الحيوانات المتوحشة وما تسببه لهم من إزعاج ، فالتجؤوا إلى العقائد والأساطير والخرافات وزينو بتعبيراتهم عنها الكهوف وأقاموا فيها حضارتهم وتركوا لنا جدرانها أثاراً ومعارضاً فنية كبيرة مفتوحة والأشكال (1 – 2 – 3- 4) توضح بعض لوحات الإنسان البدائي التي تظهر بها موضوعات مختلفة للحياة الدينية واليومية .

2 . الفنون الإغريقية والعقيدة:

اخذ الإغريق عن الشرق من سومر وأشور ومصر بعض معتقداتهم من أن لكل قوة من قوى الطبيعة إلاهاً يسيطر عليها فالشمس والقمر والرعد والبرق والمطر والهواء لكل منها قوة سحرية عبر عنها الفنان بتماثيل وصور آدمية وكانوا يعتقدون أن آلهتهم تختص

بعواطف كالعواطف الإنسانية فهي تخزن وتفرح وتتألم ولكنها تخلد وتعيش إلى الأبد [11]

وكان معبد البارثنون هو المثل الأعلى لفن العمارة اليونانية أقيم لآلهة أثينا في عصر بركليس به طراز يحيط بالمعبد من جهاته الأربع وهو أيضا يعد أشهر مباني القرن الخامس قبل الميلاد وقد شيد من المرمر الأبيض الصافي وبواجهته أعظم إفريز معماري لموضوع واحد بالنحت البارز من عمل المثال فيدياس[12] والأشكال (5 – 6) توضح بعض مظاهر الفن الإغريقي وتأثرها بالعقائد والدين ، حيث ومن خلال الاطلاع على معالم الفن الإغريقي يتضح أن الدين له دور كبير في توجيه الفنان لمواضيع تخدمه وتلبي رغباته .

3 . الفنون البيزنطية والعقيدة:

بعد انتشار الدين المسيحي بكثرة ودخول عدد كبير من الرومان الديانة المسيحية ، وبعد أن فُك اضطهاد دقليد بانون للديانة المسيحية، وأخذت الديانة وضعها في البلاد « ولم يكاد يحل العام 300 ميلادية حتى كانت نسبة لا بأس بها من سكان الإمبراطورية الرومانية يدينون بالمسيحية ، وبعد الاعتراف بالدين المسيحي دينا رسميا وذلك عام 33 م»[13]

ازدهرت الفنون البيزنطية في ليبيا في عهد الإمبراطور جستنيان (527 – 565 م) بعد أن حولت كثير من المعابد ومباني البازيلكات الرومانية إلى كنائس ، بالإضافة إلى بناء كنائس جديدة [14]

يعتبر الفن المسيحي أداة للكنيسة ، حيث سيطرت فيه الموضوعات والقصص والمشاعر الإنجيلية بشكل واضح ، ويبرز التأثير المسيحي واضحاً من خلال الانتشار الواسع للمذهب الرمزي لمفهوم العلاقة الكونية ، ومحاولة التعبير عن أي حقيقة بواسطة الرمز ، حيث إن الأناجيل نفسها تتضمن مفاهيم أخلاقية عديدة ، جاء التعبير عنها على صورة أمثال رمزية شهيرة ، ومن ثم أصبحت هذه الأمثال الرمزية موضوعات للرسوم الأيقونية كموضوع (الراعي الصالح) و (المزارع) و (العذراء والمجنونات) وغيرها من الرموز. [15]

وكغيرها من الديانات والعقائد فإن المسيحية أثرة بل وتحكمت في الفنون في فترة حكمها وسيطرتها حيث جعلت مواضيع الفن في تلك الفترة جُلها لها الطابع الديني والأشكال رقم (7 – 8) توضح لوحات للفنون المسي

4 . الفنون الإسلامية والعقيدة:

ظهر الفن الإسلامي على مسرح الأحداث بعد ظهور الإسلام على يد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويقصد بالفن الإسلامي ذلك الفن الذي ابتكرته الشعوب الإسلامية عامة والدول العربية خاصة حيث تعد الفنون الإسلامية من أوسع فنون العالم انتشاراً وأطولها زمناً ، ولا يـــعرف كثيرا عن الحالة الفنية في مكة والمدينة عند ظهور الإسلام ، ويرتبط التراث الإسلامي بمقـومات الحضارة العربية الإسلامية وفلسفتها من حيث القدرة على إدراك المطلق والاهتمام بالنظر التجريدي في إدراك المحسوسات .[16]

يعتبر الفن الإسلامي نتاج ضخم ضهرت فيه أشكال الفنون السابقة للإسلام، وتبلورت من جديد مكونة أساليب إسلامية جديدة موحدة ذات صفات مميزة خاصة بها ، ولقد كانت لتلك الابتكارات في الفنون الإسلامية الأثر البالغ في تطور الفنون في العالم .[17]

يقوم الفن الإسلامي على أساس من عقيدة التوحيد التي هي درة الشريعة وباب الدخول إليها وعلى تصور شامل للإنسان والحياة والكون ، وتتميز شريعة الإسلام بوضوح تام في العقيدة ، وشرح تفصيلي لدور الإنسان في الدنيا وعلاقته بكل ما حوله ، حتى الغيبيات التي يكون الإيمان بها شرطا لصحة العقيدة قام الإسلام بإجمالها وشرح ما يستطيع الإنسان استيعابه بشأنها ، لذا فلا مجال للباطل في الفن الإسلامي من وثنيات وخرافات وأوهام وأساطير .[18]

ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يجد له حاجة للاستعانة بالفنون الجميلة في إقامة شعائره أو شرح عقيدته أو تقريب أفكاره إلى أذهان المسلمين ، ولم يولد الفن لخدمة الدين في الإسلام ولم يستخدم الفن في طقوسه الدينية أو في نشر العقيدة الإسلامية كما حدث بالنسبة للأديان الأخرى ، حيث كانت تماثيل الإلهة وصورها وأماكن العبادة وأدواتها أهم المظاهر الفنية وعلى الرغم من أن المساجد كانت من أهم مظاهر العمارة الإسلامية إلا أنها لم يكن لها في الإسلام الشأن العظيم والقيمة المطلقة التي كانت للمعابد عند قدماء المصريين وغيرهم ، او التي كانت للكنيسة عند المسيحيين .

إذا فإن ميدان الفن الإسلامي ميدان التحسينات وليس ميدان الأساسيات فجميع الأساسيات التي يحتاجها المسلم في حياته اليومية قد تناولتها الشريعة الإسلامية فالفن الإسلامي كان قد تأثر بالعقيدة الإسلامية في موضوعاته التجريدية وابتعاده عن التصوير المباشر للأرواح ولم يؤثر فيها كالديانات الأخرى بطرق العبادة والطقوس الدينية . والأشكال رقم (9 ــ 10) توضح نماذج من الفنون الإسلامية[19]

شكل (1) تاسيلي–أسلوب لوحة «الرأس الأبيض»

شكل (2) رسوم صخرية من جبل العوينات / العصر الحجري الحديث

شكل (3)، تاسيلي _ منظر طقوسي يبين الأبقار وهى تمر عبر "بوابة"

شكل (4) تاسيلي–أسلوب لوحة "الوجه الأبيض"

شكل رقم (5) لوحة المبارزة، فرسكو، الفن الإغريقي، شحات، القرن الرابع ق.م

شكل رقم (6) فازة إغريقية بها صورة امرأة تشارك في مهرجانات باخوس، القرن الرابع ق.م

شكل (7) القيثارة مع كلبه – متحف الفسيفساء في طرابلس – ليبيا

شكل (8) فسيفساء من متحف طرابلس – ليبيا

(شكل رقم9) بلاطات خزفية، جامع أحمد باشا بطرابلس، الفن الإسلامي

(شكل رقم 10) بلاطات خزفية، جامع مصطفى قرجي بطرابلس، الفن الإسلامي

إستنتاجات:

1 . العلاقة بين الفن والعقيدة علاقة ديناميكية تشكل معطياتها دائما وفقاً للظروف الحضارية التي يعيش الشعوب والأفراد في إطارها وعلى قوة الاعتقاد وضعفه في النفس البشرية .

2 . لقد كانت علاقة الفن والعقيدة هي بالأساس ضمن علاقة الفن بالمجتمع ككل ، وعلاقة الظاهرة الجمالية بالظاهرة الدينية تخضع بشكل خاص لقانون العمل التدريجي .

3 . لم ينصهر الفن في الدين في المجتمعات البدائية بل انصهر في المجتمع ككل أي مع وظائفه الاجتماعية كافة .

4 . لكل من الديانات والعقائد تأثير وتأثر بالفنون فبعضها أثرت وتأثرت بالفنون وبعضها أثرت فقط وبعضها تأثرت فقط .

المـــراجع

1. محمود البستاني، الإسلام والفن ، مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر، لبنان، 1992 م،ص8.

2. نفس المرجع السابق ،ص 7.

3. مصطفى عبده ، الإسلام يحرر الفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1999م ، ط 2 ، ص 7 .

4. نفس المرجع ، ص 7.

5. موقع انترنت (http://library.thinkquest.org/C0125920/aqeeda/akeda1.htm)

6. رمضان الصباغ ، جماليات الفن (الإطار الأخلاقي والاجتماعي) ، دار الوفاء للنشر والطباعة ، الإسكندرية ،ب – ت ، ص 273.

7. محسن محمد عطية ، جذور الفن ، عالم الكتب ، القاهرة، 2005، ، ص14.

8. بركات محمد مراد ، الإسلام والفنون ، دار الثقافة والإعلام ، الشارقة ، 2007 م ، ص 157 – ص158 .

9. . عياد موسى العوامي « تأملات في الرسم على الصخور « مجلة أثار العرب ، العدد 2 ، مشروع إدارة وتنضم المدينة القديمة ، طرابلس ، 1991 ، ص9 .

10. عياد أبو بكر هاشم ، الفن التشكيلي مرآة الحضارة ، أكاديمية الدراسات العليا ،طرابلس ، ليبيا ، 2006 ، ص 12 .

11. يونس الشلوي ، الفن الإغريقي ، مدونة ليبية تعنى بالآثار والفنون القديمة ، 2009 ، موقع انترنت . (http://younis71.maktoobblog.com)

12. بركات محمد مراد ،نفس المرجع السابق ، ص 164 .

13. محمد على عيسى « معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا « مجلة أثار العرب ، العدد 6 ، مشروع إدارة وتنظيم المدينة القديمة ، طرابلس ، 1993 ، ص ص 107 - 108 .

14. نفس المرجع ، ص112 .

15. بركات محمد مراد ،نفس المرجع السابق ، ص 164 .

16. محمـد زينهم ، التواصل الحضاري للفن الإســـلامي وتأثيره على فنـــاني العصر الحديث، مطابع الأهرام ، مصر ، 2001 ، ص 19.

17. حسام الغمري ، الإسلام والفن ، دار الفاروق للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2006 م ، ص 25 .

18. محمد حسين جودي ، الفن العربي الإسلامي ، دار المسيرة ، عمان ، 1998 ، ص 9 .

19. محمد زينهم نفس المرجع السابق ، ص 93 .